

# في إلهاد العربى

بديع الزمان الهمذاني<sup>(١)</sup>

بقلم أديب معروف

— ٢ —

رحلاته الى الأقاليم الشرقية ووفاته بهراه

بعد أن يقضى الزمان لبانته ، يترك نيسابور ، وهو أعلى منزلة مما كان يوم دخلها ، ثم هو عملاً بقوله (الماء إذا طال مكثه ، ظهر خبثه ، وإذا سكن مكنه ، تحرك نكنه ، وكذلك الضيف يسمج لقاءه ، إذا طال ثواؤه ، ويثقل ظله ، إذا انتهى محله) يأخذ في السفر ، ويديم التنقل ويطوف البلاد ، وهو يشعر بالنصر ، وعلو القدر ، فلا يترك مدينة شهيرة من مدن خراسان وسجستان والسند إلا ويحلها : وفي رحلاته يتصل بالأمرء ويمدحهم ، وينال من منجمهم ما لم يكن يحلم به ، ثم يحط رحاله بهراة ، وإليها ينتهى سيره ، وبها تدركه منيته ، وبحسب الإطالة لا يزيد أن نذكر لك من هؤلاء الأمرء الأمايرين :

(١) خلف بن أحمد أمير سجستان الخارج على الدولة السامانية المتوفى سنة ٣٩٩ ويرجع نسبه إلى عمرو بن الليث الصفارى صاحب سجستان ، وبديع الزمان يمدح خلقاً هذا بقصيدة مطلعها :

سماء الدجى ما هذه الحدق النجل      أصدر الدجى حال وجيد الضحى عطل  
وفيها يقول :

ويا ملكاً أدنى مناقبه العلى      وأيسر ما فيه الساحة والبذل  
هو البدر إلا أنه البحر زاخر      سوى أنه الضرغام لكنه الوبل

(١) تنمة البحث الذى نشر فى الجزء الرابع

محاسن يديها العيان كما ترى      وإن نحن حدثنا بها رفع العقل  
فقولاً لوسام المكارم باسمه      ليهنك أن لم تبق مكرمة غفل<sup>(١)</sup>  
وجارك أفراد الملوك إلى الندى      وحقاً لقد أعجزتهم تلك الخصل<sup>(٢)</sup>  
سما بك من عمرو ويعقوب محمداً      كذا الأصل مفخوراً به وكذا النسل  
(٢) السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي صاحب السند وخراسان ، المتوفى سنة  
٤٢١ . وقد كان بديع الزمان يتتبع خطواته ، ويتعرف حركاته وسكناته ، ويهينه بفتوحاته  
ومما قال في مدحه قصيدة شهيرة هي :

تعالى الله ما شاء      وزاد الله إيماناً  
أأفريدون في التاج      أم الأسكندر الثاني  
أم الرحبة قد عادت      إلينا بسليمان  
أظلت شمس محمود      على أنجم سامان  
وأمسى أهل بهرام      عبيداً لابن خاقان  
إذا ما ركب القيل      لحرب أو لميدان  
رأت عيناك سلطاناً      على منكب شيطان  
فرس واسطة الهند      إلى ساحة جرجان  
ومن قاصية السند      إلى أقصى خراسان  
على مقتبل العمر      وفي مفتتح الشان  
فيوما رسل الشاه      ويوما رسل الخان  
فما يغرب بالمغرب      عن طاعتك اثنان  
لك السرج إذا شئت      على كاهل كيوان  
أيا والى بغداد      ويأصاحب غمدان  
تأمل مائتي فيل      على سبعة<sup>(٣)</sup> أركان  
يقلبن أساطين      ويلعبن بثعبان<sup>(٤)</sup>

(١) غفل : مكان خالية .

(٢) الحصل : الخطر الذي يراهن عليه ؛ يقال أحرز فلان خصلة إذا غلب .

(٣) أراد بالسبعة أركان أركان الجيش وهي القلب والميمنة والميسرة والجنان والساقة والمقدمة .

(٤) الغرض من الثعبان هو خرطوم القيلة لأنه يشبه الثعبان في طوله وتأويله .

عليهن تجافيف (١) يشهرن بألوان  
وبأجوج وه أجوج من الجند تموجان

### مواهب بديع الزمان

يكاد يجمع علماء الأدب على أن بديع الزمان كان واحد عصره ، وأعجوبة دهره ، وأنه قد وصل في الكتابة الفنية الى منزلة لم يصل اليها أحد من قبله ، ولا من بعده ، وينقل إلينا هؤلاء الأدباء فيما ينقلونه أنه كان يأتي بالعجائب ، ويظهر المعجزات ، لاسيما إبان مهاجراته للخوارزمي .

ومهما يكن في الأخبار التي نقلت اليينا عن بديع الزمان ، وعن العجائب التي كانت تصدر عنه ، والمعجزات الأدبية التي تظهر على يديه ، فأنت لا تنكر عليه فضله اذ أنه فيما وصل اليينا من نظمه ونثره ما يدل على أنه كان كاتباً مجيداً ، حاضر الذهن ، قوى العارضة ، حاد الذاكرة ، ولكن يجدر بنا أن نتساءل عما عساه أن يكون ، فيما يرويه الرواة عن بديع الزمان من مبالغة .

معقول أن ينظر بديع الزمان لأول مرة الى أربع أوراق ، أو خمس مكتوبة ، ثم يقدر على إعادة ما فيها بدون أن يخطئ ، ومعقول أن يطلب منه نقل ثلاثة أو أربعة من الابيات الفارسية الى العربية شعراً مع تعيين البحر والقافية فيفعل .

ومعقول أن يقترح عليه معنى من المعاني ، فينشئ فيه رسالة ، مبتدئاً بآخر السطور منتهياً بأولها ، كل هذا معقول ، وكله يبرهن على حدة ذاكرة ذلك الأديب ، وقوة عارضته . ولكن لا ينبغي لنا أن نبالغ فنقول إنه كان يعيد ما يقرأ بدون أن يخطئ حتى ولا في حرف منه ، أو نقول انه كان ينقل القصيدة الفارسية الى أخرى عربية لوقته وساعته ،

فيأتي شعره عربياً جيداً ، أو ندعي أنه كان ينشئ الرسائل التي كانت تقترح عليه على القور بدون أن تعطي له فرصة للتفكير . نعم لا ينبغي أن نبالغ بل يجب ألا تقبل قول من ينقل هذه المبالغات الا على أنها مبالغات . ولو أننا رجعنا الى مصادر هذه الرواية لوجدناها محصورة جداً لا تتجاوز يتيمة الدهر ، وما رواه بديع الزمان عن نفسه في رسائله ، أما الثعالبي صاحب يتيمة الدهر (٣٥٠-٣٩٩) فانه معروف بالمبالغة في اطراء أهل عصره ، وأما ما كتبه بديع الزمان عن نفسه ، فلا يمكن أن ينهض دليلاً على صدق كل ما في هذه

الرواية من التفصيلات ، ولأمر ما أهمل ابن خلكان كل هذه المعجزات ، كأنما يشير بذلك إلى أنه لا يثق بما نقل عنها . فنحن نرجح أن في هذه الرواية مبالغة في تفصيلاتها لا في أصلها .

نثره :

ولكننا مع ذلك لا نبجد فضل بديع الزمان ، ولا ننكر تقدمه على غيره من كتاب عصره ، فرسائله تشهد بعلو كعبه وارتفاع منزلته ، ومقاماته تدل على تفوقه ومقدرته النادرة المثال ، والحريري مع تأخره في الزمان ، يشهد لأستاذة بالفضل . ويعترف له بالسبق ، ويكفيه فخراً أن لقب ببديع الزمان .

رسائله :

وأول ما يلتفت نظر القارئ لها سعة اطلاعه ، وغزارة مادته اللغوية ، وقدرته على جمع شوارد الألفاظ ، والتأليف بين نواذر الكلمات ، وصوغ بديع الجمل ، وحسن اقتباس الآيات القرآنية ، والايات الشعرية ، والأمثال العربية ، والاتيان بها في موضعها ، كل هذه مع حسن النظم ورشاقة الأساليب ، ودقة التعبيرات ، مما يدل على ما في طبعه من رقة ، وفي روحه من خفة ، وفي مزاجه من اعتدال ، ولا بدع فقد خلعت عليه اللغة الفارسية عذوبتها ، واكسبته البيئة الايرانية نضارتها وبهجتها . وأخلق بمن اختلط بالأمرء ، وحضر مجالس الأمرء أن يكون رقيق الشعر ، دقيق الحس ، فصيح المقال .

وبديع الزمان من استخدموا النثر في الأغراض الشعرية ، كلمهاجة ، والمنفاخرة ، والاستجداء ، والمدح ، والاستعطاف ، وله مجموعة رسائل مطبوعة مشروحة كثيرة العدد كتبت في فنون شتى كالشوق ، والشكر ، والشكوى ، والعتاب ، والتهنئة والتعزية ، والحكم . نماذج من رسائله :

قد مر عليك بعض رسائل البديع . ولكننا نود أن نورد عليك صوراً أخرى من نثره لتبين صحة ما قلناه عن مقدرته .

فن أعذب اعتذاره ورقيق استعطافه . ما كتب به الى القاسم الكرجي ، وهو قوله :  
يعز على أطال الله بقاء الشيخ الرئيس ، أن ينوب في خدمته قلبي عن قدمي ، ويسعد برؤيته رسولي دون وصولي ، ويرد شرعة الأنس كتابي قبل ركابي . ولكن ما الحيلة

والعوائق حجة .

وعلى أن أسعى وليد س على إدراك النجاح  
وقد حضرت داره ، وقبلت جداره ، وما بي حب الجدران ، ولكن شغفاً بالقطان ،  
ولا عشق الحيطان ، ولكن شوقاً الى السكان ، وحين عدت العوادي عنه أصليت ضمير  
الشوق على لسان القلم ، معتذراً الى مولاي عن تقصير وقع ، وفتور في الخدمة عرض .  
ولكني أقول :

إن يكن تركي لقصدك ذنباً فكفي ألا أراك عقاباً

ومما قاله في الاستمناح ما كتبه الى بعض أصدقائه وهو :

لك أعزك الله عادة فضل في كل فصل ، ولنا شبه مقت في كل وقت ، ولعمري أن ذا  
الحاجة مقيت الطلبة ، ثقيل الوطأة ، ولكن ليسوا سواء .

ومما قاله في الشكوى ما كتبه الى أبي نصر الميكالي ، يشكو اليه خليفته بهراء وهو :  
أطال الله بقاء الشيخ الجليل : الماء إذا طال مكثه ، ظهر خبثه ، وإذا سكن متنه ، تحرك  
نتنه ، كذلك الضيف يسمح لقاءؤه ، إذا طال ثواؤه ، وينقل ظله ، إذا انتهى محله ،  
وقد حلبت أشطر الدهر خمسة أشهر بهراء ، وإن لم تكن دار مثلي لولا مقامه ، وما كانت  
أسعني لولا ذمامه ، ولي في بيتي قيس بن الملوح ( الذي هو مجنون ليلي ) مثل صدق ،  
وإن صدر مصدر عشق :

وأدنيقتني حتى إذا ماسبيتني بقول يخل العصم سهل الأباطح

تجافيت عني حيث لا لي حيلة وخلفت ماخلفت بين الجوائح

نعم قنصتني نعم الشيخ ، فلما علق الجناح ، وقلق البراح ، طار مطار الريح لا بل  
مطار الروح ، وتركنتي بين قوم ، ينقض مسهم الطهارة ، وتوهن أكتفهم الحجارة —  
ومما كتب البديع الى أبي القاسم الكرجي يعاتبه قوله :

فأني وإن كنت في مقتبل العمر ، فقد حلبت شطري الدهر ، وركبت ظهري البر  
والبحر ، ولقيت وفدى الخير والشر ، وصاغت يدي النفع والضرر . فإلى صغرت هذا الصغر  
في عينه ، وما الذي أزرى بي عنده حتى احتجب ، وقد قصدته ، ولزم أرضه ، وقد  
حضرته ، وأنا أحاشيه أن يجهل قدر الفضل ، أو يجحد فضل العلم ، أو يمتطي ظهر التيه

على أهليه ، وأسأله أن يختصني بفضل اعظام إن زلت بي قدم في قصده مرة والسلام .

وكتب يهنئ بمولود وهو من جيد ماقال :

حقاً لقد أنجز الاقبال وعده ، ووافق الطالع سعده ، وإن الشأن لفيما بعده ، وحبذا  
الأصل وفرعه ، وبورك الغيث وصوبه ، وأينع الروض ونوره ، وحبذا سماء أطلعت  
فرقداً ، وغابة أبرزت أسداً ، وظهر وافق سنداً ، وذكر يبقئ أبداً ، ومجد يسمى ولداً  
وشرف لحمة وسداً .

أنجب الأيام والداه به إذ نجلاه فنعم ما نجلاه

وكتب يعزى بعض الرؤساء :

إذا ما الدهر جر على أناس حواء الله أناخ بآخرين

فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

أحسن ما في الدهر عمومته بالنوائب ، وخصوصه بالغايب ، فهو يدعو الجفلى إذا أساء  
ويخص بالنعمة إذا شاء — وليتأمل المرء كيف كان قبلاً ، فإن كان العدم أصلاً ، والوجود  
فصلاً ، فليعلم الموت عدلاً ، والعاقل من رقع من جوانب الدهر ما ساء بما سر ، ليذهب  
ما تقع بما ضر ، فإن أحب أن يحزن ، فلينظر يمناً ، هل يرى إلا محنة ، ثم ليعطف يسرة  
هل يرى إلا حسرة ، والموت — أطال الله بقاء الشيخ — خطب قد عظم حتى هان ، وأمر  
قد خشن حتى لان ، ونكر قد عم حتى عاد عرفاً ، والدنيا قد تنكرت حتى صار الموت  
أخف خطوبها ، وخبثت حتى صار أقل عيوبها .

وإنك لتجد الحكم والأمثال منبثة في رسائل البديع ، ومن مشهور حكاية :

المرء لا يعرف بيرده ، كالسيف لا يعرف بغمده — الحنق لا يزيد الرزق ، والدعة لا تحجب  
السعة ، الحبل لا يبرم إلا بالقتل ، والثور لا يربي إلا للقتل — أسفل ما يكون الأريب إذا  
علا ، ما كل مائع ماء ، ولا كل سقف سماء — النذل لا يألم العدل — كذب القميص ،  
لا ذنب المذيب في تلك الأكاذيب — ما كل بيت لله ولا كل محمد رسول الله — إن بعد  
الكدر صفواً ، وبعد المطر صفواً :

مقاماته :

وللبديع عدا رسائله مقامات تربو على الحسين ، مطبوعة مشروحة وتمتاز برقة أسلوبها

وسهولة ألفاظها وتراكيبها - وهى قصيرة بالنسبة لمقامات الحريرى . وموضوعها يكاد يكون واحداً ، وهو الكدية ، والاستجداء بالطرق المختلفة التى يرويها عيسى بن هشام عن أبى الفتح الاسكندرى ، ومن جيد مقاماته مقامة تجدها يكتب « النصوص الأدبية » وهاك شطراً من مقاماته الخلفية ، نسبة الى خلف بن أحمد السابق الذكر ، وفيها يقص عيسى بن هشام قصص صديق له ، كان صحبه الى البصرة فيقول :

فلما وصلنا البصرة ، غاب عني أياماً ، فضقت بغييته ذرعاً ، ولم أملك صبراً ، فأخذت أفتش جيوب البلد حتى وجدته ، فقلت : ما الذى أنكرت ، ولم هجرت ، فقال : إن الوحشة تقدح فى الصدر اقتداح النار فى الزند ، فان أطفئت بادت وتلاشت ، وان عادت طارت وطاشت ، والقطر إذا تتابع على الاناء امتلأ وفاض ، والعقب إذا ترك فرخ وباض ، والحر لا يعلقه شرك كالعطاء ، ولا يطرده صوت كالجفاء — فن لقينا بأنف طويل لقيناه بحرطوم فيل ، وأنت لم تفرسنى ليقلعنى غلامك ، ولا اشترينى لتبيعنى خدامك ، والمرء من علاماته كالكتاب من عنوانه ، فان كان جفاؤهم شيئاً أمرت به ، فما الذى أوجب وان لم تكن عامت به كان أعجب . ثم قال :

ظفرت يدا خلف بن أحمدائه سهل الفناء مؤدب الخدام  
أومارأت الجود يجتاز الورى ويحل من يده بدار مقام

شعره :

وللبديع عدا الاشعار التى تتخلل رسائله ومقاماته ، قصائد غر طوال . معظمها فى المدح ، وقلائد تجد قصيدة من قصائده الا وهى مصدرة بالغزل والنسيب ، وهاك نماذج أخرى من شعره غير ما سبق .

قال يمدح أحد الامراء :

|                       |                    |
|-----------------------|--------------------|
| طرباً لقد رق الظلا    | م ورق أنفاس الصباح |
| وسرى الى القلب العليل | عليل أنفاس الرياح  |
| ومليحة ترنو بنر       | جسة وتبسم عن افاح  |
| قامت وقد برد الحلى    | تميس فى ثنى الوشاح |
| تشدو وكل غنائها       | برد على كبد قراح   |

يا ليل هل لك من صبا  
سأريق ماء شببتي  
فيم العتاب ولا لهم  
ولعـاذلاتي في الملية  
وهوأي للبيض الصبا  
وولوع كفي بالقدا  
وعليك ادمان الندى  
فليعل رأيك أنه  
وأفـنـر فانك في الملو  
ح أم لنجمك من براح  
ما بين ريحان وراح  
غيري ولا لهم صلاح  
حة عاذلاتك في السما  
ح هو الكلب لبيض الصفا  
ح ولوع كفك بالراح  
وعلى إدمان امتداحي  
يلوى يد القدر المتاح  
ك لك المعلى في القداح

وقال يمدح ابن فريفون من الامراء :

ألم تر أني في نهضتي  
ولما التقينا شمتت الترا  
لقيت امرأ ملء عين الزما  
لآل فريفون في المكرما  
إذا ما حلت بمفـنـهم  
لقيت المني والنفي والاميرا  
ب وكنت امرأ لأشـم العيرا  
ن يعلو سـجـاباً ورسو ثيرا  
ت يد أولا واعتذار أخيرا  
رأيت نعيمًا وملـكـا كيرا

ومما قاله في مدح بني ميكال الفضلاء :

يا غلام الكأس قاليا  
يا بني ميكال والجو  
شرفاً إن مجال الفضل  
وعلى قدر سنا الممدو  
فهناك الشرف الار  
س من الناس مزيج  
لعـاذلاتي مزيج  
فيكم التسيح  
ح يأتيك المديح  
فع والطرف الطموح

ومن جيد مدحه قوله :

وكان يحكيك صوب الغيث منسكباً  
والدهر لو لم يخن والشمس لو نطقت  
لو كان طلق المحيا يمطر الذهبا  
والايث لو لم يصد والبحر لو عذبا

وقوله :

يا أيها الملك الذى بعساكر الآمال يَغزى  
خلقت يداك على العدى سيفاً وللعافين كنزاً  
لا زلت يا كنف الاسد يرلنا من الأحداث حرزاً

ولم يكن شعر بديع الزمان من الجودة مثل ثره ، ولذلك كان ثره أسير في الآفاق  
وأكثر جرياً على الألسنة ، وقلماً تجدد أدبياً نبغ في الصناعتين ، وبلغ فيهما منزلة واحدة  
موازنة :

يعد بديع الزمان فارس حلبة الكتاب في عصره ، والمتفوق على أهل زمنه وهو  
وان تأخر به الزمان مقدم على ابن العميد رئيس الطبقة ، ويمتاز عن رجالها بالترام  
السجع القصير الفواصل ، والاكثر من استعمال المحسنات البديعية بدون تكلف ، ونحن  
إذا قارناه بكتاب المقامات وجدناه يربو على أستاذه ابن فارس بغزارة المادة ، وحدة  
الذاكرة ، وسعة الاطلاع . أما تلميذه الحريري فقد اعترف له بالفضل ، ولا غرو فقد  
فضله بركة الألفاظ ، وسلاسة الاسلوب ، وعدم التكلف ، ولذا كان بديع الزمان من ممثلي  
الطريقة العميدية ، أما الحريري فهو الى الطريقة الفاضلية أقرب ، وهو برجالها أشبه .  
الخلاصة :

مما تقدم يتسنى لك أن تستنتج أن بديع الزمان كان أحد الأفضاذ ، وأنه كان كاتباً  
أولاً ، وشاعراً ثانياً ، وأنه كان السابق على أدباء دهره ، المقدم على أبناء عصره المولع  
بالمحسنات البديعية ، المتفنن في التراكيب ، المبدع في الأساليب ، وأنه فوق ذلك كله قد  
استفاد من بيئة عصره ، ومن الظروف المحيطة به أعظم فائدة ، فلم يترك فرصة الا  
اتهمزها ، فتنقل في البلاد ، ووفد على العلماء ، ونال الحظوة لدى الأمراء ، ولكن  
والأسفاه لم يعصمه أدبه من المنية ، ولم يمنعه ماله من شرب كأسها لما حان حينه ، وانقضى  
أجله مأسوفاً عليه .

والموت نقاد على كفه جواهر يختار منها الجياد  
الى هنا ينتهى بحثنا المختصر في تاريخ ذلك الاديب ، والله يهدينا سواء السبيل انه  
سميع قريب ؟  
( ح . ع )